سنة اللّه في بطر النعمة وتغيرها في القرآن الكريم*

د. شعبان رمضان محمود محمد مقلد**

*تاريخ التسليم: 2016/8/15م، تاريخ القبول: 2016/9/5م.
**أستاذ مشارك/ جامعة الجوف/ المملكة العربية السعودية.

ملخص:

سنة الله في بطر النعمة وتغيرها في القرآن الكريم

إن هذا الكون تحكمه قوانين ثابتة، تُعرف (بالسنن الإلهية)، يسير بها الإنسان على وعي وبصيرة، ومنها: قانون **الله** في بطر النعمة وتغيرها.

ولعدم وضوح هذه السنة لدى كثيرين، ولأهمية الوعي بها، وندرة الاهتمام بإظهارها؛ جاءت فكرة دراستها من القرآن الكريم.

ويجيب البحث عن أسئلة عدة، ومنها: ما مفهوم سنة بطر النعمة وتغيرها؟، وكيف تناولها القرآن الكريم؟، وما أهمية دراستها؟ وما واجب المسلم والأمة نحوها؟، وهدف البحث التعريف بهذه السنة، وتناول القرآن الكريم لها، وبيان أهميتها، وواجب المسلم والأمة نحوها.

ويتناول البحث مفهوم سنة بطر النعمة وتغيرها، ومعانيها في القرآن الكريم، وتناوُلُ القرآنِ الكريم لها، وملامح السننية فيها، ثم أهمية دراستها، وواجب المسلِم والأمة نحوها، ثم خاتمة البحث التي تشتمل على النتائج :

مصطلح (سنة **الله** في بطر النعمة وتغيرها) يعني: قانون **الله** المطرد في جحود النعم، والطغيان بها، وعدم شكرها والحفاظ عليها.

ورد في القرآن أن البطِرين يحل بهم عقاب الدنيا قبل الآخرة، ومنه عقابهم بالجوع والخَوف، أو بالهلاك وتخريب الديار، أو بإهلاك الزروع والثمار، ولا يسلب **الله** نعمة قوم حتى يغيروا ما كانوا عليه من الطاعة والعمل الصالح، ومن ملامح السننية فيها: تكرارها واطرادها في جميع الأمم، والأسلوب البديع في تركيبة آية سورة القصص رقم (58)، وورود العقاب مرتبطًا بالسلوك البشري ارتباط الصفة بالموصوف، وضرب المثل بذلك، وترتيب العقوبة على العمل..

ولدراسة هذه السنة أهمية كبرى في ضبطها لسلوك من يعيها، فلا يُغَر بكثرة النعم واستدامتها، ويشكر منعمها، ويحسن التصرف فيها، وواجب الجماعة تبصير الأفراد بها، ورعاية حقوق المنعم فيها.

الكلمات المفتاحية: سنة **الله**، بطر النعمة، القرآن الكريم

Allah (Sunah) Traditionsagainst those who are ingratitude of grace and how to change as it is found in the Holy Qur›an

Abstract:

This universe is governed by fixed laws, known as (Divine Traditions) humans deals with them followed by humans in consciousness and insightfully, such as Allah's laws of ingratitude of grace and change it. And because of the lack of clarity of this tradition to many, and the importance of awareness of it, and the scarcity of interest in it, so the idea of studying this tradition in the Holy Qur'an comes as a result. The paper answers several questions such as follow:

What is the concept of the tradition of ingratitude of grace and change it? How does the Holy Qur'an deal with it? What is the importance and significance of its study? What is the duty of Muslim and Islamic nation toward it? The objective of the paper is to define it clearly, to clear out how the Holy Quran deals with it, and to clarify its importance and the duty of the Muslim toward it.

The paper also deals with the concept of the ingratitude of grace and change it, and their interpretations in the Qur'an, how the Qur'an deals with it, and the features of the traditions in it, then the importance of its studying, and the duty of the Muslim toward it, then the conclusion of the search, which is the most important findings are:

The term (Allah (Sunah) Traditions in the ingratitude of grace and change it in the Qur'an) means: the common laws of Allah in the ingratitude of graces and favors, and not thanks and not preserved them.

Stated in the Quran that people who are not ingratitude faces punishment in their life before the punishment in the Judgment Day, and they punished by hunger and fear, or doom and destruction of homes, or the destruction of crops and fruits, and Allah does not take away the grace of a people until they change what they were of obedience and good deeds.

From the features of this Sunah(Traditions of ingratitude of grace and favor) are the following:

It is repeated continuously in all nations, rhetorical style in the formatting of the verse number(58) in Al-Qasaes Surah , the punishment comes related to human behavior like the relation between the attribute and attributive person and giving example for this and the punishment comes as a result of work or comes after work.

Studying this tradition has a great importance in tuned to the behavior from appreciated by, people should not be wiggery by its sustainability, and they should thank Allah, and they should behave well, and the duty of nation to enlighten individuals about it, and take care of the rights of the Allah in his Grace.

Dr / Shaban Ramadhan Mahmoud Mohammed Maqlad

Associate Professor at Al-Jouf University

Specialized in the Interpretation and Quranic sciences

***Keywords**: Allah (Sunah) Traditions, the ingratitude of grace, Glorious Qur'an*

مقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على خاتم رسل الله، محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد،

فإن الإنسان هو أساس هذا الكون، وهو محتاج في حياته إلى منهاج يقوم الحياة التي يحياها، منهاج يرسم له الطريق الذي يسلكه، وينظم علاقته بخالقه في هذه الحياة، كذلك ينظم علاقته بغيره من أبناء جنسه في هذا الكون، وليس هناك من منهاج أنفع ولا أهدى لهذا الإنسان من المنهاج الذي رسمه له الخالق جل وعلا إنه القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى هدى ونورًا للناس أجمعين، وجاء معجزة متجددة في عطائه، وافيًا بحاجات البشر في مختلف العصور، ونظراً لتجدد الأحداث وتنوع حاجات البشر في كل عصر تنوعت أساليب البحث عند المفسرين حسب معطيات العصر؛ لتواكب هذه الأحداث وتفي بتلك الحاجات للبشرية.

وإن هذا الكون بما فيه ومن فيه، بل إن العالم بأسره وما يحدث فيه من أحداث وغيرها، كل هذا لا يحدث في الكون ولا في العالم صدفة، وإنما يحدث طبقًا لقوانين ثابتة عامة متناهية في الدقة والاطراد، وبما أن الإنسان خلق من هذا العالم، فهو يجري عليه من تلك القوانين الثابتة ما يناسب خلقته وتكوينه من أحوال ونتائج تترتب على هذه الأحوال من مثل السعادة والشقاء والقوة والضعف... إلى آخر ما يصيبه في الدنيا والآخرة.

وتعرف هذه القوانين (بالسنن الإلهية) في هذا العالم، سواء ما كان منها في الكون أو في الإنسان، أو في غير ذلك من مخلوقاته.

هذه القوانين الثابتة مع النتائج التي تترتب عليها، تنبو للناظر المتأمل عن عظيم قدرة الباري –سبحانه وتعالى –وعن باهر حكمته، وتفرده بالكمال والجلال.

هذه القوانين نعمة عظيمة من نعم الله – سبحانه – للإنسان يسير بها في هذا الكون على وعي وبصيرة، وهدى ونور.

ومن هذه القوانين أو تلك السنن: قانون بطر النعمة وتغيرها.

وقد بين الله لكل ذي عينين من خلقه هذا القانون، إما عن طريق ما يقع له، أو أمامه في حياته اليومية، وإما آيات قرآنه الحكيم، والتي وردت كاشفة عن هذه السنة العظيمة، مظهرة مقدماتها ونتائجها، وكيفية الانتفاع بها، وواجب المسلم تجاهها، ومن يقرأ آيات القرآن الكريم، ويتعرف على هذه السنة، أو تنكشف أمامه في حياته اليومية، وفي تعاملاته مع نعم الله –عز وجل – فلا عليه إلا أن يأطر نفسه على الانتفاع بها والعمل بمقتضاها، وإلا ستكون حجة عليه ﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ۞ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء 88،89).

الإطار التنظيري للدراسة

أهداف الدراسة

تهدف الدراسة في هذا الموضوع إلى كشف النقاب عن هذه السنة بغية زيادة التبصر والانتفاع بها من قبل كاتب هذه السطور قبل قارئها، كما تهدف إلى بيان سنة بطر النعمة وتغيرها، وكيفية تناول القرآن الكريم لها، وإبراز ملامح السننية فيها، ثم بيان عاقبة البطرين بالنعم، واستيضاح أهمية الدراسة لهذه السنة، ومن ثم الوصول إلى معرفة واجب الفرد والجماعة تجاه هذه السنة.

أسباب الدراسة

نبعت فكرة هذه الدراسة، لأسباب، منها:

1. عدم وضوح هذه السنة عند كثير من البشر، اللهم إلا من وهبه الله بصيرة نافذة، وقلبًا واعيًا.
2. ندرة اهتمام الباحثين والكتاب بإظهار هذه السنة .
3. إهمال المناهج الدراسية –حتى الإسلامية منها– لهذه السنة مع صلتها الوطيدة بالعقيدة الإسلامية.
4. أهمية فهم سنة الله في بطر النعمة وتغيرها؛ لما قد يترتب على ذلك من نجاة الإنسان أو هلاكه.
5. العودة الحقيقية في تصوراتنا وأفكارنا وقضايانا إلى الاغتراف من معين القرآن ونبعه، والوقوف عند حده وبيانه كما مضى سلف الأمة .
6. طروء بعض التصرفات الخاطئة تجاه نعم الله – عز وجل– لدى بعض الناس، مما يستدعي تبصير الناس بهذه السنة.
7. وهذا كله مما دعاني إلى دراسة هذه السنة كي أحاول كشف النقاب عنها، يضاف إلى ذلك القيمة العلمية لدراسة السنن الإلهية بوجه عام، ودراسة تلك السنة بوجه خاص، علاوة على أنني لم أعثر – فيما قرأت –على أحد تناول هذه السنة قبل ذلك بالدراسة المفصلة.

منهج الدراسة

يستخدم الدارس المنهج الجمعي الاستقرائي الوصفي فالتحليلي الاستنباطي، حيث تتبع النصوص من القرآن والسنة – قدر استطاعته– وقد راعى ما يأتي:

- عزو الآيات القرآنية إلى سورها، وذكر اسم السورة ورقم الآية منها.
- تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها الأصلية، مع الاقتصار على الصحيح أو الحسن منها.
- الاقتصار على بعض الشواهد والأدلة بوصفها نماذج للنقاط التي تناولتها خشية الإطالة.

الدراسات السابقة

بداية لا أدعي السبق في الحديث عن السنن بوجه عام، ولكني أحاول أن أضع لبنة في البناء علها تسد فجوة، أو ترشد ناظر، أو تعطي فكرة، فقد سبقني إلى الكتابة في موضوع (السنن) بوجه عام غير واحد من الأفذاذ، ولا أنكر أنني أفدت من بعضهم، فمن الدراسات التي كتبت في السنن على سبيل المثال:

- الدكتور: عبد الكريم زيدان في: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد.
- الدكتور: شريف صالح الخطيب في: (السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك).

♦ الدكتور: راشد سعيد شهوان، في رسالته للدكتوراه: (السنن الربانية في التصور الإسلامي) كلية الشريعة، قسم الثقافة الإسلامية. الرياض 1990م(وإن كنت لم أستطع التوصل إليها)

♦ وقد كتب أيضًا غير واحد من الباحثين في سنن أخرى من السنن الإلهية، ومن ذلك ما يلي:

♦ الدكتور: شعبان رمضان محمود في: (سنة الله في الترف والمترفين.. مفهومها ومدى الاستفادة منها في ضوء القرآن الكريم)

♦ الدكتور: رمضان خميس زكي في: (مفهوم السنن الربانية وموقف المسلمين منها بين الإعمال والإهمال)، وكذلك: فقه السنن الربانية ومدى إفادة المسلمين منها، وكذلك: سنة التمكين من الإدراك إلى التسخير.

♦ أقيم مؤتمر في كلية الشريعة في جامعة الزرقاء الأهلية بالأردن عن (السنن الإلهية في الكتاب والسنة)، وكل البحوث التي قدمت فيه تدور حول التعريف بالسنن، والسنن الإلهية في القرآن، وفي الرزق، وفي الإنسان والمجتمع، وفي الكون، وفي الابتلاء، وفي النصر والهزيمة.

إلا أني لم أقرأ ولم أتوصل إلى أحد سبقني إلى الكتابة في هذه السنة (سنة الله في بطر النعمة وتغيرها)، اللهم إلا مقالات عدة على الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) عن شكر النعمة، وبطر النعمة في القرآن الكريم .

تساؤلات الدراسة

- ◄ ما المقصود بسنة بطر النعمة وتغيرها ؟
- ◄ كيف تناول القرآن الكريم سنة بطر النعمة وتغيرها ؟
- ◄ كيف نستخرج سنة بطر النعمة من القرآن ؟
- ◄ ما عاقبة البطرين بالنعمة ؟
- ◄ هل هناك أهمية لدراسة هذه السنة ؟
- ◄ ما واجب الفرد المسلم، وما واجب الجماعة تجاهها؟

مكونات الدراسة

رئي في تنظيم البحث أن يكون مكونًا من مقدمة، وتمهيد ومبحثين، وخاتمة.

♦ أما المقدمة فتلك التي نحن بصددها وفيها الإطار التنظيري للدراسة.

♦ والتمهيد في مفهوم سنة بطر النعمة وتغيرها، ويشتمل على:

- أولاً: مفهوم السنة ومعانيها في القرآن الكريم.
- ثانيًا: مفهوم بطر النعمة.
- ثالثًا: مفهوم تغير النعمة.

♦ المبحث الأول: سنة الله في بطر النعمة وتغيرها في القرآن الكريم، وفيه ثلاثة مطالب:

- الأول: سنة الله في بطر النعمة في القرآن الكريم.
- الثاني: سنة الله في تغير النعمة في القرآن الكريم.
- الثالث: ملامح السننية في سنة بطر النعمة وتغيرها.

♦ المبحث الثاني: أهمية دراسة سنة بطر النعمة، وواجب المسلم نحوها، وفيه ثلاثة مطالب:

- الأول: أهمية دراسة سنة بطر النعمة وتغيرها.
- الثاني: واجب المسلم تجاه سنة بطر النعمة وتغيرها.
- الثالث: واجب الجماعة المسلمة تجاه سنة بطر النعمة وتغيرها.

♦ وأخيرًا خاتمة البحث، وشملت أهم نتائجه، ثم فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

التمهيد

مفهوم سنة بطر النعمة وتغيرها

أولاً مفهوم السنة ومعانيها في القرآن الكريم.

السنة في لغة العرب

السنة تعني السيرة والطريقة، حسنة كانت أم سيئة، مقبولة كانت أم مرذولة.[1]

وسنة الوجه: طريقته، وسنة النبي: طريقته التي كان يتحراها. وسنة **الله** تعالى: قد تقال لطريقة حكمته وطريقة طاعته. وقوله تعالى: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (الحجر:28) قيل متغير، وقوله تعالى: ﴿**لم يتسنه**﴾ (البقرة: 259) معناه: لم يتغير [2]

فالسنة في معناها اللغوي هي: الطريقة أو السيرة سواء أكانت حسنة أم سيئة، ففي الحديث الشريف: (من سنّ في الإسلام سُنّةً حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنّةً سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء.)[3]

- **السنة في اصطلاح العلماء:**

لأهل كل علم تعريف اصطلاحي للفظ (السنة) حسب ما يتوافق علمهم مع المادة اللغوية للكلمة، وما يهمنا رؤية المفسرين للفظة وتعريفهم لها، فقد قال الشوكاني: المراد بالسنن: ما سنه **الله** في الأمم من وقائع.[4]

وقال الرازي: السنة: الطريقة المستقيمة والمثال المتبع.[5]

وقال ابن تيمية: السنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول، ولهذا أمر **الله** –تعالى –بالاعتبار فقال﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾(يوسف: 111)[6]

وقال صاحب المنار: السنة هي النظام الذي جرى عليه أمر الأمم، وإن ما يقع للناس في كل زمن من الأزمان، وفي كل مكان من الوجود في شؤون اجتماعهم وحياتهم مطابق لتلك السنن التي لا تتحول ولا تتبدل[7].

وقال صاحب الظلال: (أن السنن هي النواميس التي تحكم حياة البشر وفق مشيئة **الله** الطليقة، وأن ما وقع منها في الماضي يقع في الحاضر إذا أصبحت حال الحاضرين مثل حال السابقين)[8]

ومن تعريفات المعاصرين يقول الدكتور عبد الكريم زيدان:

يلاحظ أن هذه الكلمة يدور معناها على معنى: الطريقة المتبعة، فيكون معنى سنة الله:

هي الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر، بناءً على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه، وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة.[9]

ويستخلص الدكتور صديق أكثر من تعريف للسنة نذكر منها التعريف الآتي:

هي عادة الله وطريقته الجارية فيما يوقعه بعباده المصدقين الملتزمين، ومقابلها بعباده الكافرين المشاقين، وغيرهم، كل على حسب عمله ومنهجه الذي التزمه. [10]

وقال صاحب المنار في ربطه المادة اللغوية لكلمة سنة بالمعنى الدلالي لها: السنن جمع سنة، وهي الطريقة المعبدة، والسيرة المتبعة أو المثال المتبع، من قولهم: سن الماء إذا والى صبه، فشبهت العرب الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب، فإنه لتوالي أجزائه على نهج واحد يكون كالشيء الواحد [11].

وبعد ذكر هذه التعريفات نستطيع أن نقول: إن السنن الإلهية تعني: طريقة الله –سبحانه وتعالى – وقوانينه التي تجري باطراد وثبات، وعموم وشمول، بلا تبدل ولا تحول، مرتبة على سلوك البشر، وفق مشيئة الله وعدله وحكمته في مخلوقاته.

- **صيغ السنن معانيها ودلالتها في القرآن الكريم** [12]

ورد لفظ (سنة) ومشتقاتها في القرآن الكريم ست عشرة مرة، ضمن إحدى عشرة آية، في عشر سور، وتنوعت في ورودها على صيغ متعددة، فقد وردت مفردة من قبيل المفرد المضاف في تسعة مواضع، منها قوله تعالى:﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ**﴾ (الأنفال:38) [13]

ووردت مجموعة مرتين، الأولى بصيغة الجمع المضاف في آيتين، واحدة في سورة النساء (النساء:26)، والثانية في سورة آل عمران (آل عمران:137)

أما عن دلالة لفظ (سنة) في القرآن الكريم، فإننا إذا أنعنا النظر في هذه المادة في القرآن الكريم، وما ذكره المفسرون في دلالاتها يتبين لنا أن معناها يدور بين: منهج الله وعادته في خلقه، وحكم الله، وما سنه الله في الأمم من وقائع، وما أحله بهم.[14]

ثانيًا: مفهوم بطر النعمة

البطر في اللغة:

البَطَرُ (محرَّكةً): النَّشاطُ، والأَشَرُ، وقلَّةُ احْتمال النِّعْمَة، والدَّهَشُ، والحَيْرَةُ، أو الطُّغْيانُ بالنِّعْمَة، والطُّغْيَانُ عِنْدَ النِّعْمَة وَطُول الْغنَى، وكراهيَةُ الشيء من غير أَنْ يَسْتَحقَّ الكَراهَةَ، والبطر: التَّبختر،... وبَطَرُ الحَقِّ: أن يَتَكَبَّرَ عنهُ فلا يَقْبَلَهُ، وبَطَرُ الحقِّ عَلَى قَوْله: أَن يَطْغَى عنْدَ الْحَقِّ أَي يَتَكَبَّرَ فَلَا يَقْبَلُهُ. وبَطِرَ النِّعْمَةَ بَطَراً، فَهُوَ بَطِرٌ: استخفّ النِّعمة وكفر بها ولم يشكر ربّه عليها، يقال: بطر النّعمة يبطرها لم يشكرها، وأبطرهُ المالُ: جعله متكبِّرًا طاغيًا.[15]

وللبطر معانٍ عديدة أوردها بعض المؤلفين [16] **فقال:**

البطر: الطغيان عِنْد النِّعْمَة، وَقَالَ ابْن الْأَعرَابِي : البطر سوء احْتِمَال الْغنى، وبطر الْحَق: أَي جعل مَا جعله الله حَقًا بَاطِلاً، وأصل البطر الْبطلَان مَأْخُوذ من قَول الْعَرَب: ذهب كرمه بطرا أَي بَاطلا، هَذَا قَول الْكسَائِي وَقَالَ الْأَصْمَعِي: البطر الْحيرَة، وَمَعْنَاهُ أَن يتحير عِنْد الْحق فَلَا يرَاهُ حَقًا، وَقَالَ الزَّجاج : البطر أَن يطغى فيتكبر عِنْد الْحق فَلَا يقبله، وَقيل : البطر تجَاوز الْحَد فِي التمدح والافتخار....

وما يعنينا من هذه المعاني هو أن البطر: الطغيان عِنْد النِّعْمَة، والتكبر على الحق وعدم قبوله.

والبطر اصطلاحًا: دهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة، وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها.[17]

والبطر: سوء احتمال الغنى، وهو ألا يُحفظ حق الله فيه.[18]

معنى النعمة:

النعمة: الخفض– أي خفض العيش– والدعة والمال، والتنعّم: الترفّه. والنعمة: هي المسرة والفرح والترفه، والنعمة ما أنعم به عليك، وفلان واسع النعمة أي واسع المال. ونعمة العيش: حُسنه ونضارته.[19]

وجاء في المعجم الوسيط: النعمة: الرفاهة وطيب العيش، يقال هو في نعمة عيش: في حُسنه ونضارته، والنعمة: المنة والصنيعة واليد البيضاء الصالحة، والنعمة: ما أنعمتم به من رزق ومال وغيره. ونعم: نضر وطاب ورَفه، ويقال: نعُم عيشه وباله: هدأ واستراح وستر واستمتع. [20]

وفي مفردات الراغب، النعمة : الحالة الحسنة ولين العيش.[21]

والنّعمة اصطلاحًا: هي ما قُصد به الإحسان والنفع لا لغرض ولا لعوض.[22]

والنِّعْمَة: مَا يحصل للْإِنْسَان بِهِ التنعم فِي الْعَيْش.[23]

إذن فالنعمة: كل ما يترف به الإنسان ويتمتع به ويطيب به عيشه ويهنأ، وما يصلح به حاله، وما به يسعد.

ويدخل في مفهوم النعمة الأشياء المادية كالمال ولين العيش والسكن الحسن، كما تشمل النعمة الأشياء المعنوية كالهداية إلى الإسلام، وكالعتق بالنسبة للعتيق.[24]

ويعني بطر النعمة: الطغيان عند النعمة، وكراهيتها دون أن تستحق الكراهية، وعدم القيام بشكرها. [25]

ويطلق أيضاً على بطر النعمة : كفران النعمة، فقد جاء في مفردات الراغب : وكفر النعمة أو كفرانها يعني سترها بترك أداء شكرها . والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً، والكفر في الدين أكثر استعمالاً، والكفور يستعمل فيهما جميعاً.[26]

وبطر النعمة: استخفها فكفرها.[27].

والفرق بين بطر النعمة وكفر النعمة: أن بطر النعمة يفيد أنه عظمها وبغى فيها، وكفرها يفيد أنه عظمها وجحدها فقط، وأصل البطر الشق.[28]

ثالثًا: مفهوم تغير النعمة.

التغير اصطلاحًا: هو انتقال الشيء من حالة إلى حالة أخرى. [29]

التغير: هو إحداث شيء لم يكن قبله.

إذن فتغير النعمة يعني الانتقال بها من حالة الاعتراف

بمنعمها، وشكره عليها، وحفظها، وتوجيهها في حقها كما أمر المنعم، إلى عدم الاعتراف، وعدم الشكر أو الجحود، وكذلك عدم حفظها، وتجيهها في غير حقها.

رابعًا: مفهوم سنة بطر النعمة وتغيرها

إذا كانت كلمة سنة تدل على العادة المتبعة والطريقة الماضية التي تمضي باطراد وثبات، وكان ورود الكلمة في القرآن أكسبها بعض الصفات بالإضافة إلى دلالتها اللغوية، وذلك مثل (العموم والشمول وعدم التغير أو التبدل والتحول، ومثل عدم المحاباة والاستثناء) كذلك، مما يؤيده الواقع ويدعمه الاستقراء، وكلمة بطر النعمة تدل على الطغيان بها، وكراهيتها دون أن تستحق الكراهية، وعدم القيام بشكرها؛ وتغير النعمة يعني الانتقال بها من حالة الاعتراف بمنعمها، وشكره عليها، وحفظها، وتوجيهها في حقها كما أمر المنعم، إلى عدم الاعتراف، وعدم الشكر أو الجحود، وكذلك عدم حفظها، وتوجيهها في غير حقها.

إذا كان الأمر كذلك فإن مفهوم مصطلح (سنة الله في بطر النعمة وتغيرها) هو: قانون الله المطرد في جحود النعم، والطغيان بها، أو عدم الاعتراف بمنعمها، وعدم شكره عليها، وعدم حفظها، وتوجيهها في غير حقها.

المبحث الأول

سنة الله في بطر النعمة وتغيرها في القرآن الكريم

المطلب الأول

سنة الله في بطر النعمة

أنعم الله– سبحانه وتعالى –على عباده بكثير من النعم، وهي –كما ذكرنا سابقًا– إما مادية، وإما معنوية، وأوجب على عباده شكره– سبحانه– على هذه النعم، والشكر على النعم يكون باللسان شكرًا باللفظ، وتحدثاً بها، ﴿**وأما بنعمة ربك فحدث**﴾ [الضحى:11]، ويكون اعترافاً بالقلب واطمئناناً منه بالنعمة، كما يكون صرفاً لها في طاعة الله وفي مصادر الخير.

أما من يخالف شيئاً من وجوه الشكر هذه فهو جاحد للنعمة بَطِر بها، وقد جعل الله لبطر النعمة سنة وقانوناً لايتبدل ولا يتغير، ويُجريه الله على الخلق كافة، وهذه السنة أو ذاك القانون على أكثر من وجه، والمتأمل في القرآن الكريم يقف على عدد من الآيات التي تبين سنة الله في هؤلاء، وتفصح عن عاقبة الذين يتكبرون على نِعَم الله سبحانه، حيث تحل بهم عقوبة في الدنيا قبل عقوبة الآخرة، فهذه العقوبة إما أن تكون عقابًا للبطرين بالجوع والخوف، وإما عقابًا لهم بالهلاك وتخريب الديار، أو بإهلاك الزروع والثمار. والسطور الآتية تفصل الحديث عن كل وجه من هذه الوجوه إن شاء الله تعالى.

أولاً عقوبة البطرين بالجوع والخوف:

فأول عقوبة للبطرين تجريها سنة الله فيهم أن الله – سبحانه – يعاقبهم بالجوع والخوف، قال تعالى : ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ**﴾ [النحل :112]

فهَذَا مَثَلٌ أُريدَ به أَهْلُ مَكَّةَ، فَإِنَّهَا كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً مُسْتَقِرَّةً يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهَا، وَمَنْ دخلَها كان آمناً لَا يَخَافُ، ... يَأْتيها رِزْقُها رَغَداً أَيْ هَنِيئًا سَهْلًا مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُم اللَّهِ، أي جحدت آلاء الله عليها، وأعظمها بِعْثَةُ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إِلَيْهِمْ، ...وَلِهَذَا بَدَّلَهُمُ اللَّهُ بِحَالَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ خِلَافَهُمَا، فَقَالَ: ﴿**فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ**﴾، أَيْ أَلْبَسَهَا وَأَذَاقَهَا الْجُوعَ بَعْدَ أَنْ كَانَ يُجْبَى إِلَيْهِمْ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَيَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَذَلِكَ لَمَّا اسْتَعْصَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –وَأَبَوْا إِلَّا خِلَافَهُ فَدَعَا عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ، فَأَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ أَذْهَبَتْ كُلَّ شَيْءٍ لَهُمْ، فَأَكَلُوا الْعِلْهِزَ وَهُوَ وَبَرُ الْبَعِيرِ يخلط بدمه إذا نحروه.

وقوله: وَالْخَوْف، وذلك أنهم بُدِّلُوا بِأَمْنِهِمْ خَوْفًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَصْحَابِهِ حِينَ هَاجَرُوا إِلَى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه، وجعل كل ما لهم في دمار وسفال حتى فتحها اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول– صلى الله عليه وسلم– الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ فيهمْ مِنْهُمْ، وَامْتَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ**﴾ [آل عمران: 164][30]

وفى هذا إيماء إلى تماديهم في الكفر والعناد، وإلى أن ترتيب العذاب على تكذيب الرسول جاء على سنة الله في أنه لا يعذب أمة إلا إذا أنذرها، وبعث إليها رسولا يعظها ويرشدها ...

وقد جعل الله الجوع والخوف اللذين خالط أذاهما أجسامهم– لباسا لهم؛ لأن أثرهما وضررهما قد أحاط بهم من كل جانب، فأشبها اللباس الذي يغطّى الجسم ويحيط به، وجعل إصابتهم بهما إذاقة دلالة على شدة تأثيرهما الشديد الذي حدث فيهم كما يكون ذلك حين ذوق شيء مرّ بشع كريه، إذ يجد الذائق تقززا واشمئزازا.[31]

وَمَكَّةُ تَدْخُلُ فِي هَذَا الْعُمُومِ الْبَدَلِيِّ دُخُولًا أَوَّلِيًّا، وَأَيْضًا يَكُونُ الْوَعِيدُ أَبْلَغَ، وَالْمَثَلُ أَكْمَلَ، وَغَيْرُ مَكَّةَ مِثْلُهَا، وَعَلَى فَرْضِ إِرَادَتِهَا فَفِي الْمَثَلِ إِنْذَارٌ لِغَيْرِهَا مِنْ مِثْلِ عَاقِبَتِهَا، ... وَهَذَا الْكُفْرُ مِنْهُمْ هُوَ كُفْرُهُمْ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَكْذِيبُ رُسُلِهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ أَيْ: أَذَاقَ أَهْلَهَا لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ.[32]

أي جعلها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا، فأنزل الله بهم نقمته، أو لمكة. كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً لا يزعج أهلها خوف. يَأْتِيها رِزْقُها أقواتها. رَغَداً واسعاً، مِنْ كُلِّ مَكانٍ من نواحيها.[33]

وهذه عقوبة لهم في الدنيا، بل إنها تأتيهم في وقت لم يكونوا يتوقعون فيه تلك العقوبة، أي وهم في أعلى درجات الأمن، حتى إن الآية وصفتهم بالاطمئنان.

فلما كفرت هذه القرية بأنعم الله أو بدلاً من أن تشكر ربها، وتراعي الحق في هذه النعم التي تأتيها جحدت ذلك كله، حينئذ أذاقها الله لباس الجوع والخوف، فتبدلت – بأمر الله – قوتها ضعفاً، وتبدل فقرها غنى. وهذه السنَّة التي جرت على تلك القرية تجري على ما هو أكبر منها حجمًا وعدداً، وما هو أصغر منها حجماً وعدداً.

إذن فقد ضرب الله لنا الأمثال في القرآن لعلنا نتذكر أو نخشى أو نتفكر، فضرب – سبحانه– لنا أمثالاً عن عاقبة الذين يكفرون نعمة الله عليهم ويجحدونها، ومن هذه الأمثال قصة سبأ – وسيأتي

الحديث عنها –. وأهل مكة وغيرهم، فهذا الذي حلَّ بهؤلاء من النقمة والعذاب، وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام لعبرة ودلالة لكل عبد يرعى حق الله في نعمه

ثانياً إهلاك البطرين وتخريب ديارهم:

ومن سنته تعالى في البطرين تخريب ديارهم وإهلاكهم، ومعنى ذلك أن بطر النعمة قد يستوجب مثل هذا الجزاء، كما أنه قد يستوجب العقاب بالجوع والخوف الذي ذكر في الفقرة السابقة، فهذا الجزاء أو ذاك يمكن أن يصيب البطرين.

قال تعالى في جزاء البطرين بالتخريب والتدمير :

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا من قَرْيَة بَطِرَتْ مَعيشَتَهَا فَتلْكَ مَسَاكنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدهمْ إِلَّا قَليلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارثينَ﴾ [القصص: 58]، أي (وَكَمْ أَهْلَكْنَا من قَرْيَة بَطِرَتْ مَعيشَتَهَا) أي وكثير من القرى أشرى أهلها وسعوا فى الأرض فساداً، وبطروا تلك النعم، فخرّب الله ديارهم، وأصبحت خاوية لم يعمر منها إلا أقلها، وصار أكثرها خرابا يبابا.[34]

إن بطر النعمة، وعدم الشكر عليها، هو سبب هلاك القرى. وقد أوتوا من نعمة الله ذلك الحرم الآمن؟ فليحذروا إذن أن يبطروا، وألا يشكروا، فيحل بهم الهلاك كما حل بالقرى التي يرونها ويعرفونها، ويرون مساكن أهلها الداثرين خاوية خالية .. ﴿لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلا﴾، وبقيت شاخصة تحدث عن مصارع أهلها، وتروي قصة البطر بالنعمة، وقد فني أهلها فلم يعقبوا أحدًا، ولم يرثها بعدهم أحدٌ، ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ على أن الله لم يهلك تلك القرى المتبطرة إلا وقد أرسل فيها رسولا، فتلك هي سنته التي كتبها على نفسه رحمة بعباده، ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي طغت وأشرت وكفرت نعم الله فيما أنعم به عليهم من الأرزاق، والبطر: سوء احتمال الغنى، وهو ألا يحفظ حق الله فيه فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ أي منازلهم باقية الآثار، يشاهدونها في الأسفار كبلاد ثمود، وقوم شعيب وغيرهم لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا من السكنى وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ لتلك المساكن من ساكنيها، فلا يملك التصرف فيها غيرنا أي رجعت خرابا ليس فيها أحد.[35]

هذا تخويف لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن وخفض العيش، فغمطوا النعمة وقابلوها بالأشر والبطر، فدمرّهم الله، وخرّب ديارهم، فليعتبر كل قوم أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك إذا فعلوا فعلهم في بطر النعمة، وقيل: البطر سوء احتمال الغنى: وهو أن لا يحفظ حق الله فيه إِلَّا قَلِيلًا من السكنى. [36]

فَإِنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِي التَّعَرُّضَ لِلانْتِقَامِ شَأْنَ الْأُمَمِ الَّتِي كَفَرَتْ بِنِعَمِ اللَّهِ فَهُوَ تَخْوِيفٌ لِقُرَيْشٍ مِنْ سُوءِ عَاقِبَةِ أَقْوَامٍ كَانُوا فِي مِثْلِ حَالِهِمْ مِنَ الْأَمْنِ وَالرِّزْقِ فَغَمَطُوا النِّعْمَةَ وَقَابَلُوهَا بِالْبَطَرِ، وَالْبَطَرُ: التَّكَبُّرُ... وَالْمُرَادُ: بَطِرَتْ حَالَةَ مَعِيشَتِهَا، أَيْ نِعْمَةَ عَيْشِهَانَ وَالسُّكْنَى: الْحُلُولُ فِي الْبَيْتِ وَنَحْوِهِ فِي الْأَوْقَاتِ الْمَعْرُوفَةِ بِقَصْدِ الِاسْتِمْرَارِ زَمَنًا طَوِيلًا.

وَمَعْنَى لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ لَمْ يَتْرُكُوا فِيهَا خَلَفًا لَهُمْ. وَذَلِكَ كِنَايَةٌ عَنِ انْقِرَاضِهِمْ عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهِمْ.

وَقَوْلُهُ إِلَّا قَلِيلًا احْتِرَاسٌ أَيْ إِلَّا إِقَامَةَ الْمَارِّينَ بِهَا الْمُعْتَبِرِينَ بِهَلَاكِ أَهْلِهَا.[37]

وبطر النعمة وعدم شكر الله عليها لا يتعلق باللسان فقط، بل إن من البطر أن تُستعمل النعمة في غير الحكمة التي أريدت بها، ومن ذلك: البغي بالمال والترفع به على خلق الله والتعاظم عليهم والتجبر بهم والفساد فيهم؛ فقارون كان من قوم موسى لكنه بغى وتكبر به وتطاول على المنعم وجحده فأهلكه الله عز وجل لبغيه وتطاوله، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:78] وكان جزاؤه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص: 81]

ثالثاً إهلاك زروع البطرين وثمارهم :

ومن سنة الله في البطرين إهلاك زروعهم وثمارهم، فليس عقاب البطرين واحداً فقد يكون بالخوف والجوع كما ذكرنا، وقد يكون بتخريب بيوتهم وإهلاكهم، وكما ذكرنا أيضاً، وقد يكون بإهلاك زروعهم وثمارهم، وقد تجتمع هذه الجزاءات عليهم فيعاقبوا بالخوف والجوع ثم بإهلاك الزروع والثمار ثم بتخريب بيوتهم وتدميرهم، وقد يحل بهم جزاءٌ واحد فيتوبوا، ولله الحكمة البالغة يفعل ما يشاء.

فمن الجزاء بإهلاك زروع وثمار البطرين ما ذكره الله تعالى بأهل سبأ، قال تعالى :

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ .[سبأ:15 – 17]

وهذه الآيات الكريمة نزلت في أهل سبأ، وقد كان من أخبارهم التي تشير إليها هذه الآيات: أنهم كانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وفي عيشهم، واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وقد بعث الله إليهم الرسل، تأمرهم أن يأكلوا من رزقه تعالى، ويشكروه على نعمه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى، ثم أعرضوا عما أمروا به، أي أعرضوا عن توحيد الله وعبادته وحده، وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا إلى عبادة غير الله تعالى، فأرسل عليهم السيل العرم، وهو المطر الشديد، وعن ابن عباس وغيره هو اسم الوادي الذي كان يأتي السيل فيه، وبني السدّ فيه فأغرق أرضهم وزروعهم وبساتينهم المثمرة، وعوضهم الله عنها ببساتين ثمرها مرٌّ، وبأثل وهو شجر يشبه الطرفاء وشيء من سدر قليل، ثم بيّن تعالى أن ما حلّ بهم من العقاب إنما هو جزاء كفرانهم النعمة التي أنعم الله بها عليهم، وهل يعاقب إلا الكفور بنعم الله تعالى. [38]

فمن سنة الله تعالى في البطرين الذين لا يؤدون شكر الله على نعمه، إنزال العقاب الذي يستحقونه، ومنه العقاب المذكور في هذه الآيات التي عاقب بها أهل سبأ، (فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ) أي فأعرضوا عن طاعة ربهم، وصدوا عن اتباع مادعتهم إليه الرسل، فأرسل الله عليهم سيلا كثيرا ملأ الوادي وكسر السد وخرّبه وذهب بالجنان والبساتين، وأهلك الحرث والنسل، ولم يبق منهم إلا شراذم قليلة تفرقت في البلاد، وبدّلوا بتلك الجنان والبساتين التي سبق وصفها بساتين ليس فيها إلا بعض أشجار لا يؤبه بها كالخمط والأثل وقليل من النبق.

ثم بين سبب ذلك العقاب بقوله:

﴿ذلكَ جَزَيْناهُمْ بما كَفَرُوا وَهَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ أي وجازيناهم ذلك الجزاء الفظيع من جراء كفرهم بربهم وجحودهم بنعمه، وتكذيبهم بالحق، وعدولهم عنه إلى الباطل، وما نجازى مثل هذا الجزاء الشديد المستأصل إلا عظيم الكفران للنعم، الجحود للفصل والمنن.[39]

ثُمَّ لَمَّا وَقَعَ مِنْهُمُ الْإِعْرَاضَ عَنْ شُكْرِ النِّعْمَةِ أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نِقْمَةً سَلَبَ بِهَا مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَذَلِكَ أَنَّ الْمَاءَ كَانَ يَأْتِي أَرْضَ سَبَأٍ مِنْ أَوْدِيَةِ الْيَمَنِ، فَرَدَمُوا رَدْمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ وَحَبَسُوا الْمَاءَ، وَجَعَلُوا فِي ذَلِكَ الرَّدْمِ ثَلَاثَةَ أَبْوَابٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، وَكَانُوا يَسْقُونَ مِنَ الْبَابِ الْأَعْلَى ثُمَّ مِنَ الْبَابِ الثَّانِي، ثُمَّ مِنَ الثَّالِثِ فَأَخْصَبُوا وَكَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ، فَلَمَّا كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ بَعَثَ اللَّهُ جُرَذًا، فَفَتَقَتْ ذَلِكَ الرَّدْمَ حَتَّى انْتَقَضَ فَدَخَلَ الْمَاءُ جَنَّتَهُمْ فَغَرَّقَهَا وَدَفَنَ السَّيْلُ بُيُوتَهُمْ، فَهَذَا هو سيل العرم.[40]

وسبب هذا العقاب كما قال تعالى:

﴿ذلكَ جَزَيْناهُمْ بما كَفَرُوا وَهَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ أي إن ذلك التبديل من الثمار النضيجة والمناظر الحسنة والظلال الوارفة والأنهار الجارية إلى أشجار ذات أشواك وثمار مرة، كان بسبب كفرهم وشركهم بالله، وتكذيبهم الحق، وعدولهم عنه إلى الباطل، لقد عاقبناهم بكفرهم، ولا يعاقب الله إلا المبالغ في كفران النعم، والكفر بالرسل.[41]

المطلب الثاني

سنة الله في تغير النعمة في القرآن الكريم

قد تزداد النعم لدى بعض الأفراد، وقد تزداد لدى بعض الأمم، وواجبهم حينئذ شكر المنعم ورعاية حقوقه في هذه النعم، لكن قد تكون زيادة النعم ووفرتها داعية إلى الركون والمتعة والراحة، ويظن أصحابها أنهم أصبحوا في مأمن من الفقر، ومن غوائل الحياة، وقد أبانت آيات القرآن هذه الحقيقة: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق:6 – 7] وتقول الآيات على لسان المترفين الذين أبطرتهم النعمة: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ:35]، فكثرة الأموال والنعم قادتهم إلى الترف والبطر والكبر، وتلك الأمور جرتهم إلى تكذيب الحق، ورفض قبوله والإذعان له. والمؤمن الكيس الفطن الذي يدرك أن المال ظل زائل، والنعم جميعها عارية مستردة، ومن يعطها سيحاسب على قليلها وكثيرها من أين اكتسبها وفيم أنفقها، فيعمل لهذا الحساب ويسخر ماله ونعمه لخدمة دين الله، ويجاهد شهواته وملذاته في أن يجعلها مطيته إلى الجنة، فيتصدق بالمال، ويواسي ويعطف، ويحيي الأنفس المتعطشة، وينشر العلم، ويرفع شأن الأمة، ويجاهد بنعمه عدوه وعدو أمته.

ولاستيضاح هذه السنة في حياة الأمة أفرادًا وجماعات، ولاستدامة استقامتهم وصلاحهم على التبصر والاعتبار بها عقد الشيخ محمد عبده في تفسير المنار فصلاً كاملاً عنها بعنوان: (فَصْلٌ فِي بَيَانِ سُنَّتِهِ تَعَالَى فِي تغير أَحْوَالِ الْأُمَمِ)

ومن كلامه في هذا الفصل قوله: (هَذَا بَيَانٌ لِسُنَّةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ أَعْظَمِ سُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِي نِظَامِ الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ، يُعْلَمُ مِنْهَا بُطْلَانُ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ الَّتِي كَانَتْ غَالِبَةً عَلَى عُقُولِ النَّاسِ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ، وَلَا يَزَالُ جَمَاهِيرُ النَّاسِ يُخْدَعُونَ بِهَا، وَهِيَ مَا يَتَعَلَّقُ بِنَوْطِ سَعَادَةِ الْأُمَمِ وَقُوَّتِهَا وَغَلَبِهَا وَسُلْطَانِهَا بِسَعَةِ الثَّرْوَةِ، وَكَثْرَةِ حَصَى الْأُمَّةِ.

وَكَانَ مِنْ غُرُورِهِمْ بِهَا أَنْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ مَنْ أُوتِيهَا لَا تُسْلَبُ مِنْهُ، وَأَنَّهُ كَمَا فَضَّلَهُ اللهُ عَلَى غَيْرِهِ بِابْتِدَائِهَا، كَذَلِكَ يُفَضِّلُهُ بِدَوَامِهَا ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ: 35) ...

فَبَيَّنَ اللهُ تَعَالَى خَطَأَهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد:11]، وَأَثْبَتَ لَهُمْ أَنَّ نِعَمَ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْأَقْوَامِ وَالْأُمَمِ مَنُوطَةٌ ابْتِدَاءً وَدَوَامًا بِأَخْلَاقٍ وَصِفَاتٍ وَعَقَائِدَ وَعَوَائِدَ وَأَعْمَالٍ تَقْتَضِيهَا، فَمَا دَامَتْ هَذِهِ الشُّئُونُ لَاصِقَةً بِأَنْفُسِهِمْ مُتَمَكِّنَةً مِنْهَا كَانَتْ تِلْكَ النِّعَمُ ثَابِتَةً بِثَبَاتِهَا، وَلَمْ يَكُنِ الرَّبُّ الْكَرِيمُ لِيَنْتَزِعَهَا مِنْهُمُ انْتِزَاعًا بِغَيْرِ ظُلْمٍ مِنْهُمْ وَلَا ذَنْبٍ، فَإِذَا هُمْ غَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ تِلْكَ الْعَقَائِدِ وَالْأَخْلَاقِ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ مَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ، غَيَّرَ اللهُ عِنْدَئِذٍ مَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَسَلَبَ نِعْمَتَهُ مِنْهُمْ، فَصَارَ الْغَنِيُّ فَقِيرًا، وَالْعَزِيزُ ذَلِيلًا، وَالْقَوِيُّ ضَعِيفًا. [42]

قال الله تعالى : ﴿ ...إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِم﴾ [الرعد: 11]

أي: إن الله تعالى لا يغير ما بقوم من النعمة والعافية، بأن يسلبها منهم حتى يغيروا ما بأنفسهم، أي ما اتصفت به أنفسهم من الأحوال الحميدة، فإذا حصل هذا التغير منهم فقدوا ما عندهم من نعمة، بكثرة المعاصي، فحفظ الملائكة نعمة يغيرها الله إذا تغيرت الأنفس نحو الشر. ... [43]

حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك بظلم بعضهم بعضا واعتداء بعضهم على بعض، وارتكابهم للشرور والموبقات التي تقوّض نظم المجتمع، وتفتك بالأمم كما تفتك الجراثيم بالأفراد.[44]

وفي آية أخرى من القرآن الكريم مؤكدة هذه السنة يقول الله تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 53] أي لم يكن شأنه تعالى ولا مقتضى سننه العامة في خلقه، أن يغير نعمة ما أنعمها على قوم حتى يغيروا هم ما بأنفسهم من الأحوال التي استحقوا بها تلك النعمة.

فنعم الله تعالى على الأقوام والأمم منوطة ابتداءً ودواماً بأخلاق وصفات وعقائد وعوائد وأعمال تقتضيها، فما دامت هذه الأشياء لاصقة بأنفسهم متمكنة فيها كانت تلك النعم ثابتة بثباتها حسب سنة الله تعالى العامة في خلقه، فإذا هم غيروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق وما يترتب عليها من محاسن الأعمال؛ غيّر الله عندئذ ما بأنفسهم وسلب نعمته منهم، فصار الغني فقيراً والعزيز ذليلاً والقوي ضعيفاً، هذا هو الأصل المطرد في الأقوام والأمم وهو كذلك في الأفراد.[45]

وخلاصة ذلك: إن ما دوّنه التاريخ من دأب الأمم وعادتها فى الكفر والتكذيب والظلم فى الأرض، ومن عقاب الله إياها– جار على سننه تعالى المطردة فى الأمم، ولا يظلم ربك أحدا بسلب نعمة منهم ولا بإيقاع أذى بهم، وإنما عقابه لهم أثر طبيعي لكفرهم وظلمهم لأنفسهم.[46]

فقد دلت النصوص على أن الله تعالى لا يسلب قوماً نعمة أنعمها عليهم حتى يغيروا ما كانوا عليه من الطاعة والعمل الصالح . كما في الآيات الكريمات : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال :53] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد:11]

المطلب الثالث

ملامح السننية في قضية بطر النعمة وتغيرها

إن مما يدل على سننية بطر النعمة وتغيرها، وما يتعلق بها من أحكام ملامح عدة، يلمحها من يتدبر آيات القرآن الكريم عامة، وآيات السنن الإلهية خاصة، ومن الملامح التي توصلنا إلى ذلك ما يلي:

1. تكرارها واطرادها في الأمم جميعا، فأمر هؤلاء البطرين ليس ببدع ولا خاص بأعداء هذا الدين، بل إنه سنة الله في كل من يجحد نعم ربه أو لا يشكره عليها، أو يبطرها.

2. الأسلوب البديع في تركيبة آية سورة القصص ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا من قَرْيَة بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: 58] فقد صُدرت الآية بلفظ (وكم) بما يدل على أن هذا الأمر يحدث كثيراً، وكذلك ورود العقاب هنا مرتبطًا بالسلوك البشري ارتباط الصفة بالموصوف، وهو أمر واضح في دلالته على السننية، ومثلها في كثير من الآيات. [47] أي وكثير من القرى أثرى أهلها وسعوا في الأرض فسادا، وبطروا تلك النعم، فخرّب الله ديارهم، وأصبحت خاوية لم يعمر منها إلا أقلها، وصار أكثرها خرابا يبابا.[48]

3. ضرب المثل بذلك في آيات سورة النحل في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۞ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [النحل: 112، 113]

(فهَذَا مَثَلٌ أُرِيدَ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ، وَمَكة تَدْخُلُ فِي هَذَا الْعُمُومِ الْبَدَلِيِّ دُخُولًا أَوَّلِيًّا، وَأَيْضًا يَكُونُ الْوَعِيدُ أَبْلَغَ، وَالْمَثَلُ أَكْمَلَ، وَغَيْرُ مَكَّةَ مِثْلُهَا، وَعَلَى فَرْضِ إِرَادَتِهَا فَفِي الْمَثَلِ إِنْذَارٌ لِغَيْرِهَا مِنْ مِثْلِ عَاقِبَتِهَا، ... وَهَذَا الْكُفْرُ مِنْهُمْ هُوَ كُفْرُهُمْ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَكْذِيبُ رُسُلِهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ أَيْ: أَذَاقَ أَهْلَهَا لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ).[49]

(أي جعلها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا، فأنزل الله بهم نقمته، أو لمكة. كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً لا يزعج أهلها خوف. يَأْتِيها رِزْقُها أقواتها. رَغَداً واسعاً، مِنْ كُلِّ مَكانٍ من نواحيها).[50]

والأمثال أحد الأساليب الإقناعية التي استخدمها القرآن الكريم في عرض قضيته على الناس، وطرح فكرته على البشر.

فجاءت أمثاله متكاثرة بأنواعها المختلفة وصورها المتعددة، وتضمنت هذه الأمثال بتركيبتها المعروفة عددًا من السنن الثابتة والقوانين الماضية، حتى لا يكاد يخلو مثل من أمثال القرآن الكريم من الإشارة إلى سنة أو التعقيب على قانون.

ومن الناحية التطبيقية كثر ورود الأمثال في القرآن الكريم، وكثر كذلك ربطها بالعبرة والعظة، ومن ذلك الآية المذكورة.[51]

4. ترتيب العقوبة على العمل الذي برز من خلال التعبير بالفاء التعقيبية، وبالباء السببية في آيات سورة النحل السابقة: ﴿ ... فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۞ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾[النحل: 112، 113] وهذه عقوبة لهم في الدنيا، بل إنها تأتيهم في وقت لم يكونوا يتوقعون فيه تلك العقوبة، أي وهم في أعلى درجات الأمن، حتى إن الآية وصفتهم بالاطمئنان.

فترتيب الإصابة بلباس الجوع والخوف، وأخذهم العذاب لدليل بارز على السننية فيها.

وقد نطقت سير البشر بتصديق قوله تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: 11]، وأنه ما وقع تغير إلا بدعوة.

وقد نبه عليها الشيخ محمد عبده في تفسير المنار ضمن السنن فقال: (وَمِثْلُ هَذَا الْإِجْمَالِ لَا يَعْقِلُهُ إِلَّا مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ فِي إِرْثِ الْأَرْضِ وَفِي هَلَاكِ الْأُمَمِ وَتَكَوُّنِهَا، وَالْآيَاتُ الْوَارِدَةُ فِي أَنَّ لَهُ تَعَالَى فِي الْبَشَرِ سُنَنًا لَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَحَوَّلُ، وَمِنْهَا قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: 11) فَحَالَةُ الْأُمَمِ فِي صِفَاتِ أَنْفُسِهَا – وَهِيَ عَقَائِدُهَا وَمَعَارِفُهَا وَأَخْلَاقُهَا وَعَادَاتُهَا – هِيَ الْأَصْلُ).[52]

المبحث الثاني

أهمية دراسة سنة بطر النعمة وواجب المسلم نحوها

المطلب الأول

أهمية دراسة سنة بطر النعمة وتغيرها

يُفترض أن يُسبَق الحديث عن أهمية دراسة سنة بطر النعمة بالحديث عن أهمية دراسة السنن بوجه عام لكن الواقع أن هذا الجانب بحث في دراسة سابقة،[53] فمن التكرار أن نعيد الحديث عنها، وخلاصة القول فيه: إن دراسة السنن والعلم بها ضرورة لازمة؛ فهو يجنب صاحبه الاعتقاد الخاطئ، ويرفع شأن المسلم، ويعرفه في كل زمان ومكان ببعض حقائق الإسلام العظيم، ومعانيه وقوانينه الثابتة، ويجنب صاحبه التصرفات الخاطئة التي تغلب عليها الهمجية والفوضى، بل توقفه على ما أودعه الله في هذا الكون من سنن.

كما أن معرفة سنن الله تعالى في خلقه، وقوانينه في عباده جزء من الدين، أو معرفة جزء من الدين، كما أن توظيفها وإحسان التعامل معها ضرورة وفريضة، فهي ضرورة للواقع المعيش الذي يحياه المسلمون، كما أن هذه المعرفة من الواجبات الدينية التي تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة؛ حتى لا نقع في الأخطاء والعثار والغرور والأماني الكاذبة.[54]

أما عن أهمية دراسة سنة بطر النعمة وتغيرها فنقول:

إن دراسة هذه السنة والوعي بها لهو من الأهمية بمكان، إذ إن نعم الله على الأمم والأفراد منوطة ابتداء ودومًا بأخلاق وصفات وأعمال تقتضيها، فما دامت هذه الشئون ثابتة لهم متمكنة منهم، كانت تلك النعم ثابتة لهم، والله لا ينتزعها منهم بغير ظلم ولا جرم

يقترفونه، فإذا هم غيّروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق، وما يلزم ذلك من محاسن الأعمال؛ غيّر الله حالهم وسلب نعمتهم منهم، فصار الغنى فقيراً والعزيز ذليلاً والقوى ضعيفاً. (55)

كذلك نلحظ أهمية دراسة هذه السنة في ضبطها لسلوك من يعيها، وذلك حتى لا يُغَر الناس بكثرة النعم واستدامتها، ويظن أنها كل سعادته.

كذلك تتضح أهميتها في تأثر كل فردٍ يعيها وعيًا تامًا، حتى لا يتقاعس ويركن إلى المتعة والراحة، ويظنّ أنه في مأمن من الفقر وغوائل الحياة، فيقوده ذلك إلى الطغيان والبطر والكبر، فيرفض الإذعان للحق وأوامره.

وحينما يتدبر المؤمن هذا كله، ويعي هذه السنة يدرك أن المال ظل زائل، والنعم جميعها عارية مستردة، ومن يعطها سيحاسب على قليلها وكثيرها، من أين اكتسبها وفيم أنفقها، فيعمل لهذا الحساب، ويسخر ماله ونعمه لخدمة دين الله، ويجاهد شهواته وملذاته في أن يجعلها مطيته إلى الجنة، فيتصدق بالمال، ويواسي ويعطف، ويحيي الأنفس المتعطشة، وينشر العلم، ويرفع شأن الأمة، ويجاهد بنعمه عدوه وعدو أمته.

كما أن دراسة سنة بطر النعمة تنير بصر المؤمن وبصيرته، وتزيل ما قد يتلاعب بفكره من شبهات زائفة تتعلق بالنعم التي تأتيه.

تِلْكَ الشُّبُهَاتِ الَّتِي كَانَتْ غَالِبَةً عَلَى عُقُولِ النَّاسِ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ، وَلَا يَزَالُ جَمَاهِيرُ النَّاسِ يُخْدَعُونَ بِهَا، وَهِيَ مَا يَتَعَلَّقُ بِنَوْطِ سَعَادَةِ الْأُمَمِ وَقُوَّتِهَا، وَغَلَبِهَا وَسُلْطَانِهَا بِسَعَةِ الثَّرْوَةِ، وَكَثْرَةِ حَصَى الْأُمَّةِ، ...

وَكَانَ مِنْ غُرُورِهِمْ بِهَا أَنْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ مَنْ أُوتِيهَا لَا تُسْلَبُ مِنْهُ، وَأَنَّهُ كَمَا فَضَّلَهُ الله عَلَى غَيْرِهِ بِابْتِدَائِهَا، كَذَلِكَ يُفَضِّلُهُ بِدَوَامِهَا ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: 35] ...

فَبَيَّنَ الله تَعَالَى خَطَأَهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّ الله لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11](56)

ومن فوائد العلم بالسنن الإلهية أنها توقف الدارس لها على ما أودعه الله في هذا الكون من سنن في الجانب الطبيعي، أو الجانب الإنساني، ليس لمجرد المعرفة فقط، بل لبيان أن من يسير وفق سنن الله تعالى، فإنه يلقى في حياته جزاء سيره هذا: الهدى في دينه، والرخاء في معيشته، والقوة والنصر في حياته، أما من خرج عن مقتضى السنن الإلهية في الكون والحياة، فإنه يلقى جزاء ذلك ضلالاً في دينه، وشدةً وشقاءً في حياته.

والواقع أن إتباع السنن الإلهية، إذا كان يأتي لصاحبه بنتائجه الطيبة في حياته، فإن ذلك لا يرجع فقط إلى إتباعه لسنن الله الكونية، بل لا بد لتحقيق هذه الغاية من إتباع سنن الله في الحياة الإنسانية، فهما مرتبطان وصادران من مصدر واحد.

ولا تقتصر أهمية علم السنن على ما يترتب عليها من الجزاء الدنيوي، بل إنها ترجع كذلك إلى ما يترتب عليها من الجزاء الأخروي إتباعا لسنن الله تعالى أو خروجا عليها ... (57)

المطلب الثاني

واجب المسلم تجاه سنة بطر النعمة وتغيرها

وعَدَ الله – عزَّ وجلَّ – من شكره على نعمه أن يزيده من فضله، كما توعد من كفر هذه النعم بالعذاب الشديد، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم :7]، ومن جحود النعم بطرها وازدراؤها، أو التكبر بها، أو استعمالها في معصية الله؛ فمن استخدم ماله أو نعمه في ارتكاب المعاصي، أو تعامل بالربا، أو امتنع عن أداء زكاته، فهو يتسبب في زوال هذه النعم، ويجر على نفسه ويلات شداد.

ولقد ذم الله تعالى من يجحد نعم ربه. فقال سبحانه : ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات:6] والكفر بنعمة الله قد يكون بعدم شكرها. أو بإنكار أن الله واهبها، ونسبتها إلى العلم والخبرة والكد الشخصي والسعي! كأن هذه الطاقات ليست نعمة من نعم الله! وقد يكون بسوء استخدامها بالبطر والكبر على الناس واستغلالها للشهوات والفساد.. وكله كفر بنعمة الله. (58)

وإن الإنسان ليجحد نعمة ربه، وينكر جزيل فضله. ويتمثل كنوده وجحوده في مظاهر شتى تبدو منه أفعالا وأقوالا، فتقوم عليه مقام الشاهد الذي يقرر هذه الحقيقة. وكأنه يشهد على نفسه بها. أو لعله يشهد على نفسه يوم القيامة بالكنود والجحود.(59)

إذن فواجب المسلم تجاه هذه السنة أن يعيها جيدًا، ويتفهم أسرارها، ويعرف ما المطلوب منه تجاهها، ويعلم يقيناً: أن ديننا هو دين العمل وعمارة هذا الكون، والانتفاع بنعم الله– عز وجل – كما أمر، ويوازن بين عمله وانتفاعه بالنعم التي رُزق بها، يكون في هذا التوازن تقياً مراقباً لربه سراً وجهراً، وينتفع بهذه النعم وذاك العمل في حدود الاعتدال، والتوازن دون إفراطٍ ولا تفريط.

كذلك عليه أن يعلم أن الإسلام لا يحتقر المال أو النعم، ولا ينهى عن الانتفاع والتمتع بها، بل يعترف بقيمتها في الحياة، والله هو الذي ييسر ويهيئ أسبابها، وهو المنعم بها، فعليه أن يقتنيها من حلال، وينفقها في حلال، ويسخرها في رضا الله وطاعته، ولا يتباهى ولا يبطر بها، ولا يتكبر على المحرومين منها.

فالمسلم الغني مطلوب منه أن يشكر ربه – سبحانه– على نعمه، ويحافظ عليها، ولا يبطر بها، ولا يتطاول أو يتكبربها على خلق الله، ويكثر من إنفاقها في وجوه الخير، حيث لا سرف في الخير، وألا يعود نفسه على التنعم الزائد، ويعود نفسه على التخشن، فإن النعمة لا تدوم، وأن يتبصر أحوال المسلمين واحتياجاتهم، ويكثر من الإنفاق في سبيل وتفريح الكرب عن المكروبين، فليس بمؤمن من بات شبعانًا وجاره جائع، وأن يسخر ماله في سبيل رفعة الأمة، وغناها عن غيرها، واستعادتها لمجدها وعزة أبنائها وأوطانها.

إذاً فعلى المسلم أن يسير وفق سنن الله تعالى عامة، وهذه السنة خاصة؛ ليحيا حياة رتيبة منظمة، ويضع كل تصرف له في موضعه، ويتصرف في نعم الله كما أمره المنعم، وليلقى في حياته جزاء سيره السعادة والرخاء في معيشته.

وإنعام الله على العبد بالنعم الكثيرة والمال الجزيل، قد لا يكون لمحبة الله له، أو رضاه عنه، وليس بلازم أن يكون هذا العبد أهلا لهذه النعم، فربما كان ذلك استدراجًا واختبارًا له أيشكر أم يكفر، وهذا نبي الله سليمان – عليه السلام – عندما رأى نعم الله عليه علم أن ذلك اختبار له، وحكى الله –عزَّ وجلَّ– عنه ذلك فقال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ

﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾

فالمسلم عليه أيضًا تجاه النعم أن يضع نُصب عينيه دومًا أنها ابتلاء من الله عز وجل أو استدراج، لذا عليه أن يشكر ربه عليها، ويراعي حقه سبحانه في هذه النعم.

وإذا كانت دراسة السنن والعلم بها لتعريف المسلمين في كل زمان ومكان ببعض حقائق الإسلام العظيم ومعانيه وقوانينه الثابتة، وليتجنب الدارس التصرفات الخاطئة التي تغلب عليها الهمجية والفوضى، بل توقفه على ما أودعه الله في هذا الكون من سنن؛ أقول إذا كان الأمر كذلك فعلم المسلم بهذه السنة يجعله يؤمن يقينًا بأن الفوز والفلاح لمن اتبع سنة الله في خلقه وفي هذا الكون، والفوز والفلاح كذلك لمن اعتبر القصص القرآني الذي قصه الله– عز وجل – علينا في كتابه، واهتدى بهديه.

وبالجملة: يكمن واجب المسلم تجاه هذه السنة في معرفة حقيقة بطر النعمة، وأنه ازدراء النعمة، وعدم شكر المنعم عليها، أو التصرف فيها وفق الهوى والشهوات، دونما استحضار لأمر الله ونهيه.

المطلب الثالث

واجب الجماعة المسلمة تجاه سنة بطر النعمة وتغيرها

شاءت إرادة الله– سبحانه – أن يجعَلَ بَقاءَ الْأُمَم وَنَمَاءَهَا في التَّحَلِّي بِالْفَضَائِلِ تجاه النعم، من شكر المنعم عليها، ومراقبة حقه فيها، والتصرف فيها كما أمر، كما شاءت إرادته أن يجعل هَلَاكَ الأمم وَدَمَارَهَا في التَّخَلِّي عَنْ تلك الفضائل، وجعل هذا كله سنة ثابتة لَا تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأُمَمِ، وَلَا تَتَبَدَّلُ بِتَبَدُّلِ الْأَجْيَالِ، وذلك حتى لا تغتر الأمم بكثرة النعم وتتكبر بها، مثلما اغتر أهل مكة الذين ضرب الله بهم المثل لكل من يأتي بعدهم من الأمم وفي أي زمن، قال تعالى:﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: 112]

وَالْمُرَادُ: أَنَّهُمْ جَهِلُوا سُنَنَهُ تَعَالَى فِي أَسْبَابِ الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ فِي الْبَشَرِ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِمَا مِنَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاءِ، الْمُعَبَّرَ عَنْهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]

أَرْشَدَنَا سُبْحَانَهُ فِي مُحْكَمِ آيَاتِهِ إِلَى أَنَّ الْأُمَمَ مَا سَقَطَتْ مِنْ عَرْشِ عِزِّهَا، وَلَا بَادَتْ وَمُحِيَ اسْمُهَا مِنْ لَوْحِ الْوُجُودِ إِلَّا بَعْدَ نُكُوبِهَا عَنْ تِلْكَ السُّنَنِ الَّتِي سَنَّهَا اللَّهُ عَلَى أَسَاسِ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ مِنْ عِزَّةٍ وَسُلْطَانٍ وَرَفَاهَةٍ وَخَفْضِ عَيْشٍ وَأَمْنٍ وَرَاحَةٍ، حَتَّى يُغَيِّرَ أُولَئِكَ مَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ نُورِ الْعَقْلِ، وَصِحَّةِ الْفِكْرِ، وَإِشْرَاقِ الْبَصِيرَةِ، وَالِاعْتِبَارِ بِأَفْعَالِ اللَّهِ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ، وَالتَّدَبُّرِ فِي أَحْوَالِ الَّذِينَ جَارُوا عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ فَهَلَكُوا، وَحَلَّ بِهِمُ الدَّمَارُ.[60]

وهكذا كل قوم ينعم الله عليهم بنعم وفيرة فلم يقدروها حق قدرها، ولم يشكروا الله عليها، ينزل الله فيهم نقمته، ومن هنا تحذر الأمة كلها في أي عصر أن يحل بهم ما أحل بأهل هذه القرية، كذلك يحذر أهل كل عصر بطر النعمة بالاغترار وعدم شكر المنعم، أو عدم القيام بحقها، حتى لا يحيق بها الدمار والهلاك، كما أُهلكت أمم قبلها بتخريب الديار، وحتى لا يجري عليهم ما جرى لأهل سبأ في هلاك الزروع والثمار.

فَمَا مِنْ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ الْعَزِيزَةِ السَّعِيدَةِ، ارْتَكَبَتْ هَذِهِ الضَّلَالَاتِ وَالْمَفَاسِدَ الْمُبِيدَةَ، إِلَّا سَلَبَهَا الله سَعَادَتَهَا وَعِزَّهَا، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا مَنِ اسْتَذَلَّهَا وَسَلَبَ مُلْكَهَا.[61]

فقد جرت سنة الله ألا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الأحوال التي استحقوا بها تلك النعمة.

وليست سعادة الأمم وقوتها وغلبتها منوطة بسعة الثروة ولا كثرة العدد كما كان يظن بعض المشركين وحكاه الله عنهم بقوله ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[سبأ: 35]

ومادوّنه التاريخ من دأب الأمم وعادتها فى الكفر والتكذيب والظلم فى الأرض، ومن عقاب الله إياها– جار على سننه تعالى المطردة فى الأمم، ولا يظلم ربك أحداً بسلب نعمة منهم ولا بإيقاع أذى بهم، وإنما عقابه لهم أثرٌ طبيعي لكفرهم وظلمهم لأنفسهم.

وأما عذاب الاستئصال بعذاب سماويّ فهو خاص بمن طلبوا الآيات من الرسل، وأنذروهم العذاب إذا هم كفروا بها بعد مجيئها ثم فعلوا ذلك.[62]

قال الشيخ رشيد رضا في معرض الحديث عن الأمراض التي تصيب الأمة في هذا العصر: وَقَدْ تَتَوَالَى عَلَيْهَا يقصد على الأمة الْعُقُوبَاتُ حَتَّى تَضِيقَ بِهَا ذَرْعًا، فَتَبْحَثُ عَنْ أَسْبَابِهَا، فَلَا تَجِدُهَا بَعْدَ طُولِ الْبَحْثِ إِلَّا فِي أَنْفُسِهَا، وَتَعْلَمُ صِدْقَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (الشورى: 30) ثُمَّ تَبْحَثُ عَنِ الْعِلَاجِ فَتَجِدُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]، وَإِنَّمَا يَكُونُ التغير بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ، وَالْعَمَلِ الَّذِي تَصْلُحُ بِهِ الْقُلُوبُ فَتَصْلُحُ الْأُمُورُ.[63]

ذَلِكَ أَنَّ الْأُمَمَ تَكُونُ صَالِحَةً ثُمَّ تَتَغَيَّرُ أَحْوَالُهَا بِبَطَرِ النِّعْمَةِ فَيَعْظُمُ فَسَادُهَا، فَذَلِكَ تغير مَا كَانُوا عَلَيْهِ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ إِصْلَاحَهُمْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ هُدَاةً لَهُمْ، فَإِذَا أَصْلَحُوا اسْتَمَرَّتْ عَلَيْهِمُ النِّعَمُ، مِثْلَ قَوْمِ يُونُسَ وَهُمْ أَهْلُ (نِينَوَى)، وَإِذَا كَذَّبُوا وَبَطِرُوا النِّعْمَةَ غَيَّرَ اللَّهُ مَا بِهِمْ مِنَ النِّعْمَةِ إِلَى عَذَابٍ وَنِقْمَةٍ. فَالْغَايَةُ الْمُسْتَفَادَةُ مِنْ حَتَّى لِانْتِفَاءِ تغير نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى الْأَقْوَامِ هِيَ غَايَةٌ مُتَّسِعَةٌ، لِأَنَّ الْأَقْوَامَ إِذَا غَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ هُدَى أَمْهَلَهُمُ اللَّهُ زَمَنًا ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ، فَإِذَا أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ فَقَدْ نَبَّهَهُمْ إِلَى اقْتِرَابِ الْمُؤَاخَذَةِ، ثُمَّ أَمْهَلَهُمْ مُدَّةً لِتَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ وَالنَّظَرِ، فَإِذَا أَصَرُّوا عَلَى الْكُفْرِ غَيَّرَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ؛ بِإِبْدَالِهَا بِالْعَذَابِ أَوِ الذُّلِّ أَوِ الْأَسْرِ، كَمَا فَعَلَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ فَسَلَّطَ عَلَيْهِمُ الْأَشُورِيِّينَ.[64]

فواجب الجماعة المسلمة أن تعي تمامًا وتدرك أن سنة الله في بطر النعمة وتغيرها تجري على الجماعة المسلمة، فما دامت مستمسكة بشرع الله في عملها وبالاعتصام بحبل الله في وحدتها، فإن نعم الله عليها بالتأييد والنصر، ودفع الأذى عنها باقية، فإذا غيرت ذلك فلم تتقيد بشرع الله في عملها وفرطت في وحدتها؛ فإنها تسلب من نعم الله بالتأييد لها بقدر ما ضيعته من موجبات هذه النعم، فقد مضت سنة الله في خلقه أن من كفر نعمه – سبحانه – ولم يشكره عليها؛ يسلبها الله منه ويذيقه ضدها كما حدث مع القرى التي كفرت بأنعم الله.

خاتمة الدراسة

وبعد هذه الجولة الطيبة والمعايشة الوجدانية في رحاب هذه السنة الإلهية الكريمة نخلص إلى النتائج التالية:

♦ مصطلح (سنة الله في بطر النعمة وتغيرها) يعني: قانون الله المطرد في جحود النعم، والطغيان بها، أو عدم الاعتراف بمنعمها، وعدم شكره عليها، وعدم حفظها، وتوجيهها في غير حقها.

♦ أوجب الله –سبحانه وتعالى– على عباده الشكر على نعمه، والشكر يكون باللسان وبالقلب، وبحسن التصرف والفعل.

أما من يخالف ذلك فهو جاحد للنعمة بَطِر بها، وقد جعل الله لهذا البطر سنة وقانونًا لا تتبدل ولا تتغير، يُجريه الله على كافة الخلق، وأبانت آيات القرآن الكريم هذه السنة وأفصحت عن عاقبة البطرين المتكبرين، حيث تحل بهم عقوبة في الدنيا قبل عقوبة الآخرة، وهذه العقوبة إما أن تكون عقابًا للبطرين بالجوع والخوف، وإما عقابًا لهم بالهلاك وتخريب الديار، أو بإهلاك الزروع والثمار.

♦ دلت النصوص على أن الله تعالى لا يسلب قوماً نعمة أنعمها عليهم، حتى يغيروا ما كانوا عليه من الطاعة والعمل الصالح.

♦ لسنة بطر النعمة وتغيرها ملامح عدة نلمحها من تدبرنا لآيات القرآن الكريم، هي: تكرارها واطرادها في الأمم جميعا، والأسلوب البديع في تركيبة آية سورة القصص ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ**﴾ [القصص: 58] التي صُدرت بلفظ (كم)، ومن الملامح كذلك: ورود العقاب مرتبطًا بالسلوك البشري ارتباط الصفة بالموصوف، ومنها: ضرب المثل بذلك في آيات سورة النحل في قوله تعالى: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ..**﴾ [النحل: 112] أي جعلها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة، وأخيراً: ترتيب العقوبة على العمل.

إن دراسة السنن والعلم بها ضرورة لازمة، كما أن لدراسة سنة بطر النعمة أهمية كبرى في ضبطها لسلوك من يعيها، فتنير بصره وبصيرته، حتى لا يُغَر بكثرة النعم واستدامتها، ولا يتقاعس ويركن إلى المتعة والراحة، فيقوده ذلك إلى الطغيان والبطر والكبر، وإنما تعترف بالنعم، ويشكر المنعم عليها، ويحسن التصرف فيها.

♦ واجب المسلم تجاه هذه السنة أن يعيها جيداً، ويتفهم أسرارها، ويعرف المطلوب منه تجاهها، ويوازن بين عمله وانتفاعه بالنعم، دون إفراط ولا تفريط، فيشكر ربه عليها، ويراعي حقه سبحانه في هذه النِّعم، بلا تباهي ولاتكبر.

♦ واجب الجماعة المسلمة أن تعي تمامًا وتدرك أن سنة الله في بطر النعمة وتغيرها تجري على الجماعة المسلمة مثلما تجري على الفرد المسلم، تُستدام لها، وتُحفظ بها، وتُنصر وتؤيد بالاعتراف والحفاظ عليها، وتُسلب بكفرها وعدم شكرها، وعدم رعاية حقوق المنعم فيها.

الهوامش:

1. محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقى، لسان العرب، (بيروت، دار صادر، ط: ثالثة، 1414ه)، مادة سنن.
2. الراغب الأصفهاني(أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دمشق بيروت، دار القلم، الدار الشامية، الطبعة: الأولى – 1412 هـ)، 1/429، مادة سن ن ن.
3. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، (القاهرة، ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط/ثالثة1416هـ1996م)،3/267، والحديث رواه مسلم بن الحجاج القشيري أبو الحسن، صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت، ط: دار إحياء التراث) كتاب الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة برقم 2348، والإمام أحمد بن حنبل الشيباني أبو عبدالله، مسند أحمد، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ومحمد نعيم،، (بيروت، ط: مؤسسة الرسالة، ط: أولى1413هـ 1993م)، كتاب: ومن حديث جرير بن عبد الله، باب: ومن حديث جرير بن عبد الله، برقم18675، وابن ماجة: محمد بن يزيد القزويني أبو عبد الله، سنن ابن ماجه، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وآخرون،(بيروت، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، 1430 هـ – 2009 م)، ك: باب تعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة، برقم:203
4. محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، (مصر، ط: مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط: ثانية 1383هـ1964م)، 13/19 .
5. محمد فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر، الرازي، مفاتيح الغيب، (بيروت، ط:دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط: أولى1401هـ1981م.)، 15/22
6. أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية شيخ الإسلام، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، وابنه محمد، (المملكة العربية السعودية، طبع بإشراف: الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين، ط:أولى، 1398هـ)، 3/267
7. محمد رشيد بن علي رضا، تفسير القرآن الحكيم، (تفسير المنار)، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م)،4/141
8. سيد قطب، في ظلال القرآن، (القاهرة، ط:دار الشروق، ط:ثانية 1399هـ 1979م)، 1/479
9. عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، (بيروت، ط: مؤسسة الرسالة،، ط: ثالثة1419هـ 1998م)، ص13
10. صديق عب العظيم أبو الحسن، مفهوم سنن الله الاجتماعية في القرآن الكريم، مجلة: الشريعة والدراسات الإسلامية «مجلة علمية محكمة تصدر عن مجلس النشر العلمي في جامعة الكويت» السنة12، العدد31، ذو القعدة 1417هـ أبريل1997م)، ص44
11. محمد رشيد رضا، تفسير المنار، (القاهرة، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط:1990م)، 4/114

    هذا الموضوع بحث تفصيلاً في دراسة بعنوان: سنة الله في الترف والمترفين، بحث منشور في دورية كلية دار العلوم، جامعة المنيا، العدد: (إصدار خاص 2008م)
12. واقرأ الآيات التالية: [الحجر:13]، [الكهف:55]، [فاطر:43]، [الأحزاب:38] [الأحزاب:62]، [غافر:85]، [الفتح:23]، [الإسراء:77]، [النساء:26]
13. اقرأ الآيات التالية: [الفتح:23]، [غافر:85]، [الأحزاب:62]، [آل

عمران:137]، [الأحزاب:38]، [الإسراء:77]، [النساء:26]، [فاطر:43]، [الأنفال:38]، [الحجر:13]، [الكهف:55]، [فاطر:43]

14. محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقى، لسان العرب، (بيروت، دار صادر، ط: ثالثة، 1414 هـ)، باب الطاء والراء، فصل الباء،(4/96)، ومجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، (بيروت، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط: ثامنة، 1426 هـ، 2005 م)، فصل الباء، (1/352)، زين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، (بيروت، صيدا، ط: خامسة، 1420هـ، 1999م)، مادة: (ب ط ر)، (1/26)، و محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، (القاهرة، دار الهداية، د. ت)، باب: بطر، (10/212)،

15. محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير، (دمشق، وبيروت، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، الطبعة: الأولى، 1414 هـ)، (4/208)

16. ومحمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الميورقي الأزدي الحَمِيدي، تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، تحقيق: زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، (القاهرة، مكتبة السنة، ط: أولى، 1415ه، 1995م)، (1/333)

17. زين الدين محمد، عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين المناوي القاهري، التوقيف على مهمات التعاريف، (القاهرة، عالم الكتب، ط: أولى، 1410هـ،1990م)، فصل الطاء،(1/79)

18. سعيد حوّى، الأساس في التفسير، (القاهرة، دار السلام، الطبعة: السادسة، 1424 ه)، 7/4104

19. محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقى، لسان العرب، (بيروت، دار صادر، ط: ثالثة، 1414 هـ)، باب العين والميم، فصل النون، (14/207)، والتي بعدها.

20. مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، وآخرون، (مصر، دار الدعوة)، (935)

21. الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، ص 499 .

22. علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، التعريفات، ضبط وتصحيح: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، (بيروت، دار الكتب العلمية ط: أولى 1403هـ، 1983م،) باب: النون، (1/242)، ومحمد عميم الإحسان المجددي البركتي، التعريفات الفقهية، (باكستان،دار الكتب العلمية، إعادة صف للطبعة القديمة، 1407هـ – 1986م، ط: أولى، 1424هـ – 2003م)، 1/229.

23. جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط: أولى، 1404هـ، 1984م)، 1/598.

24. عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، (بيروت، ط: مؤسسة الرسالة،، ط: ثالثة1419هـ 1998م)، ص199.

25. محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقى، لسان العرب، (بيروت، دار صادر، ط: ثالثة، 1414 هـ)، باب: الطاء والراء، فصل الباء، 4/69.

26. الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، ص 439 .

27. المعجم الوسيط: (ص61).

28. الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري أبو هلال، الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، (القاهرة، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع)(1/231)، و الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري أبو هلال، الفروق اللغوية، معجم الفروق اللغوية، تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، («قم»، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، الطبعة: الأولى، 1412هـ)، (1/102)

29. علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، التعريفات، ضبط وتصحيح: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، (بيروت، دار الكتب العلمية ط: أولى 1403هـ، 1983م،) (1/63)، لعلي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، تحقيق وضبط: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط: أولى 1403هـ، 1983م، ومحمد عميم الإحسان المجددي البركتي، التعريفات الفقهية، (باكستان،دار الكتب العلمية، إعادة صف للطبعة القديمة، 1407هـ – 1986م، ط: أولى، 1424هـ – 2003م)، (1/59)

30. إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، (بيروت، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، الطبعة: الأولى،1419 هـ)، (4/522)،

31. أحمد بن مصطفى المراغي، تفسير المراغي، (مصر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، الطبعة: الأولى، 1365 هـ، 1946 م)،(14/150،151)

32. محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير، (دمشق، وبيروت، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، الطبعة: الأولى، 1414 هـ)، (3/238)

33. ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى:1418 هـ)، (3/242)،

34. أحمد بن مصطفى المراغي، تفسير المراغي، (مصر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، الطبعة: الأولى، 1365 هـ، 1946 م)، (20/76)

35. سعيد حوّى، الأساس في التفسير، (القاهرة، دار السلام، الطبعة: السادسة، 1424 ه)، (7/4103،4104)

36. محمود بن عمر بن أحمد أبو القاسم، الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، (بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة: الثالثة، 1407 هـ)، (3/424)

37. محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، (تونس، الدار التونسية للنشر، 1984هـ)، (20/150،151)

38. إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، (بيروت، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، الطبعة: الأولى،1419 هـ)، (6/445)، محمود بن عمر بن أحمد أبو القاسم، الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، (بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة: الثالثة، 1407 هـ)، (بتصرف)، (2/517)

39. أحمد بن مصطفى المراغي، تفسير المراغي، (مصر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، الطبعة: الأولى، 1365 هـ، 1946 م)، (22/70،71)

40. محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير، (دمشق، وبيروت، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، الطبعة: الأولى، 1414 هـ)، (4/367)

41. وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، (دمشق، دار الفكر المعاصر، الطبعة : الثانية، 1418 هـ، (22/166)

42. محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار، (مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط/1973م، (10/35)

43. محمود بن عمر بن أحمد أبو القاسم، الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، (بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة: الثالثة، 1407 هـ)، (بتصرف)، (2/517)

44. أحمد بن مصطفى المراغي، تفسير المراغي، (مصر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، الطبعة: الأولى، 1365 هـ، 1946 م)، (13/78)، وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، (دمشق، دار الفكر المعاصر، الطبعة : الثانية، 1418 هـ، (13/124)

45. محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار، (مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط/1973م، (10/36،37)، أحمد بن مصطفى المراغي، تفسير المراغي، (مصر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، الطبعة: الأولى، 1365 هـ، 1946 م)، (10/18)

46. أحمد بن مصطفى المراغي، تفسير المراغي، (مصر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، الطبعة: الأولى، 1365 هـ، 1946 م)، (10/18)

47. اقرأ النحل: 112، والأنبياء: 11، والحج: 45، ومحمد:13

48. أحمد بن مصطفى المراغي، تفسير المراغي، (مصر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، الطبعة: الأولى، 1365 هـ، 1946 م)، (20/76)

49. محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فتح القدير، (دمشق، وبيروت، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، الطبعة: الأولى، 1414 هـ)، (3/238)

50. ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى – 1418 هـ)، (3/242)،

51. رمضان خميس الغريب، مفهوم السنن الربانية، دراسة في ضوء القرآن الكريم، (القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط: أولى، 1426ه، 2005م)، (75،76)

52. محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار، (مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط/1973م، (2/380)

53. شعبان رمضان محمود، سنة الله في الترف والمترفين، (المنيا، جامعة المنيا، دورية كلية دار العلوم، العدد: (إصدار خاص 2008م)، (ص51)

54. عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط: ثالثة، 1419ه،1998م)، (ص16)

55. أحمد بن مصطفى المراغي، تفسير المراغي، (مصر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، الطبعة: الأولى، 1365 هـ، 1946 م)، (10/17) محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار، (مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط/1973م، (10/35)

56. محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار، (مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط/1973م، (10/35)

57. شريف الشيخ صالح الخطيب، السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، (الرياض، ط: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط: أولى1425هـ 2004م)، (1/7)،

58. سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، في ظلال القرآن، (بيروت والقاهرة، دار الشروق، الطبعة: السابعة عشر، 1412 ه)، (4 / 2089).

59. السابق، (6/3958)

60. محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار، (مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط/1973م، (10/38)

61. السابق،(8/358)

62. أحمد بن مصطفى المراغي، تفسير المراغي، (مصر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، الطبعة: الأولى، 1365 هـ، 1946 م)، (10/17،18)

63. محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار، (مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط/1973م، (8/287)

64. محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، (تونس، الدار التونسية للنشر، 1984 هـ)، (10/45)

المصادر والمراجع:

أولاً- القرآن الكريم.

ثانياً- المراجع العربية:

1. إبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط، وآخرون، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (مصر، دار الدعوة)

2. أبو الحسن، النيسابوري، مسلم بن الحجاج القشيري تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت، ط: دار إحياء التراث، د. ت)

3. أبو عبدالله، الشيباني، أحمد بن حنبل، مسند أحمد، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ومحمد نعيم،، (بيروت، ط: مؤسسة الرسالة، ط: أولى1413هـ 1993م)

4. أبو عبد الله، القزويني، محمد بن يزيد ابن ماجة: سنن ابن ماجه، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وآخرون،(بيروت، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، 1430 هـ – 2009 م)

5. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، (مصر، ط: مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط: ثانية 1383هـ1964م)

6. الرازي، محمد فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر، مفاتيح الغيب، (بيروت، ط:دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط: أولى1401هـ1981م.)

7. أبو سعيد، البيضاوي الشيرازي، ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى:1418 هـ)

8. أبو سعيد، الشيرازي البيضاوي، ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى – 1418 هـ)

9. أبو الفداء البصري، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، (بيروت، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، الطبعة: الأولى،1419 هـ)

10. أبو الفرج ابن الجوزي، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط: أولى، 1404هـ، 1984م)

11. أبو الفضل، الأنصاري الإفريقى، محمد بن مكرم بن علي جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، (بيروت، دار صادر، ط: ثالثة، 1414هـ)

12. أبو القاسم، الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دمشق بيروت، دار القلم، الدار الشامية، الطبعة: الأولى – 1412 هـ

13. أبو القاسم الزمخشري، محمود بن عمر بن أحمد، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، (بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة: الثالثة، 1407 هـ)

14. التونسي، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (تونس، الدار التونسية للنشر، 1984هـ)

15. أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران، الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، (القاهرة، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع)

16. أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران، معجم الفروق اللغوية، تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، («قم»، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، الطبعة: الأولى، 1412هـ)

17. أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية شيخ الإسلام، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، وابنه محمد، (المملكة العربية السعودية، طبع بإشراف: الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين، ط:أولى، 1398هـ)

18. الحَمِيدي، محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الميورقي الأزدي، تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، تحقيق: زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، (القاهرة، مكتبة السنة، ط: أولى، 1415هـ، 1995م)

19. الخطيب، شريف الشيخ صالح أحمد السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، (الرياض، ط: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط: أولى1425هـ 2004م)

20. الخطيب، صديق عب العظيم الخطيب، مفهوم سنن الله الاجتماعية في القرآن الكريم، مجلة: الشريعة والدراسات الإسلامية «مجلة علمية محكمة تصدر عن مجلس النشر العلمي في جامعة الكويت» السنة12، ذو القعدة 1417هـ أبريل1997م)، العدد31

21. الرازي، زين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، (بيروت، صيدا، ط: خامسة، 1420هـ، 1999م)

22. الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، (القاهرة، دار الهداية، د. ت)

23. الزحيلي، وهبة بن مصطفى، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، (دمشق، دار الفكر المعاصر، الطبعة : الثانية، 1418 هـ

24. سعيد حوّى، الأساس في التفسير، (القاهرة، دار السلام، الطبعة: السادسة، 1424 هـ).

25. الشاربي، سيد قطب إبراهيم حسين، في ظلال القرآن، (بيروت والقاهرة، دار الشروق، الطبعة: السابعة عشر، 1412 هـ)

26. الشريف الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين، التعريفات، ضبط وتصحيح: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، (بيروت، دار الكتب العلمية ط: أولى 1403هـ، 1983م،

27. شعبان رمضان محمود، سنة الله في الترف والمترفين، (المنيا، جامعة المنيا، دورية كلية دار العلوم، العدد: (إصدار خاص 2008م)

28. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، (دمشق، وبيروت، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، الطبعة: الأولى، 1414 هـ)

29. عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، (بيروت، ط: مؤسسة الرسالة،، ط: ثالثة1419هـ 1998م)

30. الغريب، رمضان خميس، مفهوم السنن الربانية، دراسة في ضوء القرآن الكريم، (القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط: أولى، 1426ه، 2005م)

31. الفيروزبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، (القاهرة، ط: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط/ثالثة1416هـ1996م)

32. الفيروزبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، (بيروت، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط: ثامنة، 1426 هـ، 2005 م)

33. المجددي البركتي، محمد عميم الإحسان، التعريفات الفقهية، (باكستان،دار الكتب العلمية، إعادة صف للطبعة القديمة، 1407هـ، 1986م، ط: أولى، 1424هـ، 2003م)

34. محمد عبده ومحمد رشيد بن علي رضا، تفسير القرآن الحكيم، (تفسير المنار)، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م)

35. المراغي أحمد بن مصطفى، تفسير المراغي، (مصر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، الطبعة: الأولى، 1365 هـ، 1946 م)

36. المناوي، زين الدين محمد، عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين القاهري، التوقيف على مهمات التعاريف، (القاهرة، عالم الكتب، ط: أولى، 1410هـ،1990م)